﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التّوبة: 92]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تكملة بيان صنف آخر، من مجموعة أصحاب الأعذار، الّذين لا يجدون ما ينفقون

بعد أن بيّن بقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾، أضاف هنا صِنفًا جديدًا؛ وهم الَّذين أتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يحملهم للقتال معه، فلم يجد ما يحملهم عليه، تولَّوا وأعينُهُم تفيض من الدّمع حَزَنًا، فهؤلاء جميعًا واقعون في دائرة المحسنين إذا نصحوا لله ورسوله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾: "الحَمْل يُطلقُ على إعطاء ما يُحمل عليه؛ أي: إذا أتوك لتعطيهم الحُمولة؛ أي: ما يركبونه ويحملون عليه سلاحهم ومُؤَنهم من الإبل"[1]. ويكون الحُمْلان أجْرًا لما يُحْمَل. والحُمْلان: ما يُحْمَلُ عليه من الدَّوابِّ في الهِبَة خاصَّةً[2]. وفي الآية أرادوا الدّابّة أو الخِفاف باعتبار أنّ مَن يلبس الخِفاف كمن يُحمل على الدّابّة؛ وهي أقلُّ ما يُقصد بالحَمل عَليه.

2) ﴿تَوَلَّواْ﴾: تولَّى عنه، أعرض، وَوَلَّى هاربًا، أدبر[3]، والتّولّي بمعنى الانصراف، قال تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ﴾ [التّوبة: 92]، ومثله قوله تعالى ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: 24] أي: انصرف[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(2) الخليل، العين: (حمل).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ولي).
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

3) ﴿تَفِيضُ﴾: جذر الكلمة هو (فيض)؛ فيض: فاضَ الماءُ والدَّمْعُ والمَطَرُ والخَيْرُ، يفيض فَيْضًا؛ أي: كَثُرَ[1]. وفاضَتْ عينُه، تفيض فَيْضًا؛ أي: سالت. وأفاضَ دمعَه يُفيضُه إفاضةً. وأفاضَ إناءَه حتى كادَ ينصَبُّ. ويُقال: ماؤها فَيْضٌ وغَيْضٌ. الفَيْضُ: الكثير[2]. أرض ذات فيوض: فيها مياه تفيض، وأرض ماؤها فيضٌ وغيضٌ، وحوض فائض: يفيض من جوانبه لامتلائه، وهذا مفيض الماء[3]. وفي الآية: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾؛ فهي كالحوض الفائض؛ أو هي كمفيض الماء.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إضافة عنصرٍ آخر إلى أصحاب الأعذار، ممّن يذرفون الدّموع، لفقد القدرة على المشاركة

الآية نزلت في نفرٍ من المسلمين لُقّبوا بالبكّائين؛ لأنّهم بكَوا حزنًا لمَّا لم يجدوا عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه؛ ليجاهدوا مع رسول الله ﷺ. فقد أضافت الآية مجموعةً أخرى من أهل العذر، وهم من الفقراء الَّذين لا يجدون ركوبًا، وقيل: إنّهم لم يسألوا رسول الله ﷺ إلَّا الحُمْلان على النّعال، فقالوا: احملنا على الخِفاف المرقوعة والنّعال المخصوفة نغزو معك؛ مبالغةً في القناعة، ومحبة للذَّهاب معه، فقال رسول الله ﷺ ما قال[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة انفراد هذا الصِّنف من المتخلّفين عن الأصناف الثّلاثة السَّابقة:

بيان حال من أتوا الرّسول الأكرم، ليَخرجوا معه، ولا يملكون القدرة الماديّة لذلك

وقد أخّر هذا الصِّنف وأفرد عن مجموعة أصحاب الأعذار باعتبارهم أضعف أصحاب الأعذار حجَّةً، فقد ورد ذكرهم مُسلسلًا من الذين هم أقوى حجة إلى أقلّهم حجة وعذرًا، وأنّ عذر هؤلاء قد ينتفي في أي وقت مع توافر ما يُحملون عليه، فأخّره لذلك على

(1) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكَم: (فيض).
(2) الخليل، العين: (فيض).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فيض).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.

طريقة ما يعرف بالتّدلّي. ثمّ إنّ أصحاب الأعذار السّابقين طلبوا القعود عن القتال بسبب أعذارهم، لكنّ هؤلاء طلبوا الخروج مع رسول الله ﷺ لأنَّهم أتَوه ليحملهم لا ليقعدوا مع الخالفين، وأنّ هؤلاء حزنوا، وفاضت أعينهم من الدّمع لعدم تمكُّنهم من الخروج؛ وهذا على خلاف السّابقين.

دلالة عطف قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾، على ما قَبْلَه:

الصِّنفُ الرَّابع هم أخصُّ من الأصناف السَّابقة، لوجود العذر المقبول لهم

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾. فيه وجهان: أحدها: أن يكون معطوفًا على ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾؛ أي: ليس على الضُّعفاءِ، ولا على الّذين إذا ما أتوكَ، فيكونون داخلين في خبر ﴿لَّيْسَ﴾ مُخْبرًا بمتعلّقهم عن اسمها، وهو ﴿حَرَجٌ﴾[1]. وإعادة حرف النَّفي بعد العاطف للنُّكتَةِ المتقدّمة هنالك[2]. الثّاني: أنْ يكون معطوفًا على ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيكونون داخلين فيما أخبر به من قوله: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾[3] وهو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ اعتناءً بشأنهم، وجعلهم كأنَّهم لتميّزهم جنس آخر[4].

دلالة تصدير الجملة الخبريّة بالنّفي:

الاستغراق في نفي الحرج عن هذا الصِّنف المستثنى من العقاب

فائدة تصدير الجملة الخبريّة قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ نفيُ الحرج عنهم؛ أي: ولا حَرَجَ على الّذين إذا ما أتوك لتحملهم، و﴿وَلَا﴾ هنا نافية للجنس؛ أي: التي تفيد التّنصيص على نفي الجنس نصًّا، لا على سبيل الاحتمال، واستغراق النّفي كلّه؛ فدلّت هنا على نفي الخبر عن الجنس الواقع بعدها على سبيل الاستغراق. ونفي الجنس يستلزم نفيه عن أفراده جميعًا. فأفاد ذلك أنَّ كلَّ هؤلاء الّذين إذا ما أتوك طلبًا للخروج معك، ولا تجدُ ما تُعينهم فيه على الخروج، لا حَرَجَ عليهم.

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.

الغرض من التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾، الاسم الموصول فيه، يُوصَل بكلام بعده، هو من تمام معناه، وذلك أنّ الاسم الموصول ناقص الدّلالة، لا يتّضح معناه إلّا إذا وصل بالصّلة، "فالموصول لا يتمّ بنفسه، ويفتقر إلى كلام بعده"[1]. ومن فوائده إرادة العموم، ففي الآية هنا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾؛ أراد عموم مَن أتى رسول الله ﷺ طلبًا للخروج معه، وهم يحتاجون إلى ما يحملون عليه.

عـمـوم هـذا الجنس لا حرج عليهم، لأنّ الله أورد عـذرهـم وقبله

دلالة التّعبير بجملة الصّلة ﴿إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾:

فائدة صلة الموصول إيضاحه وبيانه، والتّعبير عنهم بهذا الأسلوب المحقّق إتيانهم بالتّعبير بـ (إذا) ومدخولها الماضي فيه تأكيد على صدقهم وإخلاصهم، والصِّلَةُ معهودة للمُخاطَبِ معلومة عنده ﷺ، قال ابن يعيش: وينبغي أن تكون الجملة الّتي تقعُ صِلَةً معلومة عند المُخاطب، لأنّ الغرض بها تعريف المذكور بما يعلمه المُخاطب من حاله ليصحَّ الإخبار عنه بعد ذلك[2].

فـحـوى الصِّـلـة مـعـهـودة معلومة، عند رسول الله ﷺ

دلالة ﴿مَآ﴾ ومعناها:

﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾بعد الشَّرط هنا زائدة[3] للتَّوكيد، والتَّوكيد يكشف عن النّيّات الّتي أتوا بها، فإنّ هؤلاء جاءوا رسول الله ظانّين أنّهم سيُهيَّأ لهم رَكُوبٌ للقتال معه ﷺ، ولم يخطر ببالهم أنّهم سيتخلّفون عن معيّة الرّسول بسبب الرَّكُوب، فقال لهم رسول الله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ ولذلك: تولّوا وأعيُنهم تفيض من الدّمع حزنًا. فجاء التّوكيد واصفًا إتيانهم بنيّاتهم الصّادقة.

تـوكـيـد نيّاتهم الـصّـادقـة في الـخُـروج مع رسول الله ﷺ

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/150.
(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/154.
(3) معنى زيادة: (ما)، أي: في الصّناعة النحويّة والإعراب، وليس في القرآن حرف زائد، بل كلٌّ له معنى، لا يمكن الاستغناء عنه.

إيثار التّعبير بالإتيان هنا، وبالمجيء هناك:

اختلاف النيّات، هو الفاصل بين الـفـريـقـين في الجزاء والمقامات

عبّر بالمجيء مع الأعراب قال: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ وعبّر هنا بالإتيان فقال: ﴿إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ والفرق كبير بين الحالين، فالتّعبير الأوّل ذكر الّذين جاءوا رسولَ الله ﷺ لا يُريدون الخُروج معه؛ بل يُريدون التّخلُّف عن جيشه ومعيّته، فاستعمل لفظ ﴿وَجَآءَ﴾ الّذي يدلُّ على المجيء بشخصه دون شيء معه، أمَّا السِّياق الثّاني وهو سياق الإتيان فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ والإتيان هو المجيء بشيءٍ، وفائدته الدّلالة على أنّهم أتوا رسول الله بشيءٍ مهمٍ على خلاف المُخلّفين، وهو رغبتهم في الخروج مع الرّسول ﷺ فكانت هنا النّوايا هي الفاصل بين الفريقين، فأوثر الإتيان هُنا على المجيء.

دلالة اللّام: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾:

طلب الحَمْل على الخِفَافِ، وهو لا يجد ما يحملهم عليه

فائدة اللّام التّعليليّة، وهو تعليل حقيقيٌّ، إذ إنّهم أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم على الدّوابّ المخصَّصة لذلك فعلًا؛ أو يحملهم على الخفاف، ويوحي استعمال لام التّعليل بكشف ما كان في قناعاتهم من أنَّ مطلبهم سيكون محقَّقًا عند رسول الله ﷺ، لكنّ رسول الله ﷺ قال لهم ما قال.

بلاغة التّعبير بالمصدر المؤول: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾:

تصوير القناعة الـدّاخـلـيـة لديهم، من بيان السّياق

فائدة المصدر المؤول في قوله: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾؛ الدّلالة على الزّمن فيحتمل المُضِيَّ والحال والاستقبال[1]. ففي المصدر المؤوّل إيجازٌ، فإنَّ ما اعتادوه من رسول الله ﷺ أنّه يتولَّى التّكفّل بأمور الفقراء الّذين لا يجدون ما يُنفقون، فأفاد المصدر المؤوّل امتلاء صدور هؤلاء بالأمل أنّ رسول الله ﷺ سيحملهم حتمًا.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/127.

دلالة قوله ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾، ومعناه في السّياق:

في المراد بالحمل ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهُ الدَّوابّ، قاله ابن عباس. والثّاني: الزّاد، قاله أنس بن مالك. والثّالث: النِّعال، قاله الحسن[1]. وقال الحسن: نزلتْ في أبي موسى الأشعريّ وأصحابه، أتوا رسول الله ﷺ يستحملونه، ووافق ذلك منه غضبًا، فقال ﷺ: (والله ما أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه)؛ فتولوا وهم يبكون[2]. ومن المؤكَّد أنّ الحمل يتنوّع بتنوّع أحوال النّاس، فأفاد لفظ (الحمل) الإيجاز في تنوّع المطلوب منه.

يتنوّع الحمل بحسب أحوال النّاس، وظروفهم المتيحة أو المانعة

موقع جملة ﴿قُلۡتَ﴾ ودلالتها:

"قوله: ﴿قُلۡتَ﴾ فيه أربعة أوجهٍ، أحدها: أنَّهُ جواب ﴿إِذَا﴾ الشَّرطيَّة، و﴿إِذَا﴾ وجوابها في موضع الصِّلةِ، وقعت الصِّلةُ جملة شرطيّة، وعلى هذا؛ فيكونُ قوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾ جوابًا لسؤال مُقدّر كأنَّ قائلًا قال: ما كان حالهم إذا أُجيبوا بهذا الجواب؟ فأُجيب بقوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾[3]، أفاد ذلك معنى التّأثّر المباشر لهؤلاء بما وجدوه من جواب الرّسول، إذ لم يكن ذلك في حُسبانهم. الثّاني: أنَّه في موضع نصْب على الحال، من ﴿أَتَوۡكَ﴾، أي: إذَا أتوكَ، وأنت قائلٌ: لا أجدُ ما أحملكم عليه، و(قَدۡ) مُقدَّرة، عند مَن يشترطُ ذلك في الماضي الواقع حالًا[4]. الثّالث: أن يكون معطوفًا على الشَّرط؛ فيكون في محلِّ جرٍّ بإضافة الظَّرف إليه بطريق النَّسق وحذف حرف العطف، والتَّقدير: وقلتُ. ويمكن أن يقدَّر العاطف فاءً؛ أي: فقلت[5]. الرّابع: أن يكون مستأنفًا[6]. ويجُوزُ أن يكون قوله: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ﴾ استئنافًا؛

اختلاف المعاني بتغيّر الإعراب، من اتّساع العربيّة ودقّتها

(1) ابن الجوزيّ، زاد المَسير: 2/288.
(2) الرّازيّ، مفاتح الغيب: 16/122.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/172، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المَصون: 6/99.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 6/99.
(5) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.
(6) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

يعني مثل: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ [التّوبة: 93]، كأنَّه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولَّوا، فقيل: ما لهُم تولَّوا باكينَ؟ قلتَ لا أجدُ ما أحملهم عليه، إلاَّ أنَّه وسطٌ بين الشَّرط والجزاء، كالاعتراض[1].

وهذا المعنى يدلُّ على خفاء ما جرى من الكلام بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى إنّه لم يُعْلَمْ للآخرين سببٌ لتوليهم وأعينُهم تفيضُ من الدَّمع حزنًا.

دلالة التّعبير بضمير الخطاب: ﴿قُلۡتَ﴾:

عادة الصَّادقين التَّصديق، بقول الرّسول المصدوق ﷺ

المخاطَب هو رسول الله ﷺ والمعنى: إذا أتوك لتحملهم لم يكن عندك ما تحملهم عليه، فعبَّر عن هذا بقوله: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ لنكتة بديعة، وهي الإشارة إلى تصديقهم له، وأنَّهم اكتفوا من علمهم بعدم الإمكان بمجرد إخباره لهم بقوله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ بخلاف ما لو قيل: لم يجدوا عندك ما تحملهم عليه؛ فإنّه يكون تَبْيين حُزنهم خارجًا عن إخباره، وكذلك لو قيل: لم تجد ما تحملهم عليه لم يؤدِّ هذا المعنى[2].

والكلمة التي قالها لأولئك الذين أتوا يطلبون الحُمْلان ليجاهدوا معه؛ كاشفة عن أنّه ﷺ عايشَ حالةً من العُسْرَةِ لا يقدِر معها على تجهيز مَن أتى يطلب الخروج معه بأبسط متطلّبات الخروج للقتال، وهي الخِفاف.

إيثار (لا) على (ما)، في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾:

بيان أنّ الحال عدم وجود سعة لحمل المقاتلين

دخول (لا) على الفعل المضارع هنا في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾ يدلّ على الحال، وأمّا إيثار (لا) على (ما) في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾، فيبيّن ذلك قول سيبويه: "وإذا قال: (هو يفعل)؛ أي: هو في حال فعل؛ فإنّ نفيه (ما يفعل)، وإذا قال: (هو يفعل) ولم يكن الفعل واقعًا فنفيه لا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/21.

يفعل"[1]. فرسول الله ﷺ لم يكن الإيجاد منه حاصلًا، ولهذا فقد صار النّفي بـ (لا) والمعنى: لا أجد الآن ما أحملُكم عليه. فالعبارة وصفت واقع الحال وما هو عليه من شِدَّةٍ.

كما أنَّ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾، يدلُّ على الحال تنصيصًا، وذلك لنفيه مع الإطلاق. فرسول الله ﷺ لم يجد حينها مطلق ركوب، يركبونه ليحملَهم عليه في الجهاد معه.

وفي إيثار ﴿لَآ أَجِدُ﴾ على (ليس) من تلطيف الكلام، وتطييب قول السّائلين ما لا يَخفى؛ وكأنَّ رسول الله ﷺ يطلب ما يسألونَهُ على الاستمرار فلا يجد، وذلك هو اللّائق بمن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ﷺ.

دلالة ﴿مَآ﴾: وفائدتها:

عبَّر بـ ﴿مَآ﴾ الموصولة في قوله ﴿مَآ أَحۡمِلُكُمۡ﴾ للدّلالة على انتفاء المحمول عليه على العموم، إذْ هي أعمُّ الموصولات وأدخلها في الإبهام، وهو الملائم لحال العُسْرَةِ الشَّديد، فمنهم مَن قال: بأنَّه الرّكوب من البهائم، ومنهم مَن قال: بأنَّها الخِفاف أو النِّعال.

عموم فقد المحمول عليه، دلالة على شِدَّةِ العُسْرَةِ

إيثار لفظ ﴿تَوَلَّواْ﴾:

اصطفى النَّظم الكريم التَّعبير بالتَّولي لأنّ التّولِّي هنا انصرافٌ مصحوبٌ برجاءٍ وأملٍ. ومنه قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ [البقرة: 142]. فجميع هذه المواضع فيها دلالة على الانصراف مع مصاحبة مشاعر داخليّة وعاطفة جيّاشة تتمنَّى النّفس معها شيئًا جليلًا أو عظيمًا أو مهمًّا كانت تتُوق إلى تحقيقه، وهذا على خلاف المرادفات الأخرى كالإنصاف مثلًا.

الانصراف المصاحَب بالحزن، دليل على الإيمان والخشية

دلالة الجملة الاستئنافيَّة: ﴿تَوَلَّواْ﴾:

قوله سبحانه: ﴿تَوَلَّواْ﴾ مستأنفٌ استئنافًا بيانيًا، أو: هو الجواب،

(1) سيبويه، الكتاب: 1/460.

يـأس الـفـقـراء المـعـوزيـن من المـشـاركـة، مع الرّسول الأمين

و(قُلْتَ) مستأنف، وأفاد الاستئناف تلاشي الظَّنِّ الّذي كانت في أذهانهم أنّ رسول الله ﷺ سيحملهم، مما يُتيح لهم فرصة الجهاد معه، فلمّا قال؛ لهم الرّسول ما قال تغيَّر حالهُم، فتولّوا وأعينُهم تفيض من الدّمع حَزنًا.

دلالة (الواو): ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ﴾، وأثرها في المعنى:

بـيـان وصـف حزن المحرومين الـظّـاهـر، عند الـتّـأخّـر بالمانع القاهر

الواو حاليّة في قوله: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ﴾؛ أي: تولّوا وحالهُم؛ بلغ الغاية في الحُزن، والجملة في موضع الحال من ضمير ﴿تَوَلَّواْ﴾[1]. ومثله قوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [المائدة: 83]، ويُجسّد واقع حالهم؛ رغبتهم وصدقهم في الخروج مع رسول الله ﷺ، ومدى الحسرات الّتي غمرتهم.

الغرض من التّعبير بالاستعارة، في الفعل ﴿تَفِيضُ﴾:

جُـعـلـت الـعـينُ كلّها كأنها دمع فـائـض، لـبيان المـراد، وتجلية الصّورة

"الفيض والفيضان: خروج الماء ونحوه من قراره ووعائه، ويُسند إلى المائع حقيقة. وكثيرًا ما يُسند إلى وعاء المائع، فيُقال: فاض الوادي، وفاض الإناء. ومنه: فاضت العين دمعًا، وهو أبلغ من: فاض دمعها، لأنّ العين جُعِلَتْ كأنّها كلّها دمع فائض، فقوله: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ جرى على هذا الأسلوب"[2]. ثمّ مشهد آخر هو في قوله: ﴿تَفِيضُ﴾ من الاستعارة حيث شبَّه العينَ بالنّهر الجاري، ثم حَذَفَ المشبَّه به ورَمَزَ له بشيءٍ من لوازمه وهو الفيضان، وفيه بيانٌ عن غزارة دمع العين دلالةً على شِدَّة الحزن النَّاتج عن انقطاع الأمل.

دلالة ﴿مِنَ﴾ ومعناها، في شبه الجملة: ﴿مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾:

غـايـة الأسى والألـم، فيضان العين دمعًا

و﴿مِنَ﴾ للأجَلِ والسَّبَب، وقيل: إنَّها للبَيَان، كقولك: أفديك من رجل[3]. وقوله: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾؛ وجعله تمييزًا، سلوكًا لطريق الإيضاح بعد الإبهام، ولأنّ العين جعلت كأنّها دمع فائض، ثمّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/484، وابن عادل، اللُّباب: 10/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/484، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.

﴿وَأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أبلغ ممّا قبله بواسطة ﴿مِنَ﴾، فإنَّه جعل أعينهم فائضة، ثمَّ جرَّد الأعين الفائضة من الدَّمع باعتبار الفيض. وأنَّ ﴿مِنَ﴾ هنا للبيان لما قد أبهم ممّا قد يُبيَّن بمجرد التّمييز؛ لأنَّ معنى تفيض العين؛ أي: يفيض شيء من أشياء العين، كما أنَّ معنى قولك: (طاب زيد)؛ أي: طاب شيء من أشياء زيد، وهذا مجاز تكون علاقته الكُليّة لأنّه ذَكَرَ الكُلَّ وأراد الجزء، والتَّمييز رفع إبهام ذلك الشيء فكذا من الدمع فهو في محل نصب على التَّمييز[1]. وورد أيضًا من نظائر الآية قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: 83]. ويمكن أن يكون معنى (من) الابتداء، وهو معنى معروفٌ من معانيها، وعليه يكون التَّشبيه مقلوبًا، لأنَّه جعل العينَ تفيضُ من الدَّمع، والأصل أنَّ الدمع يفيضُ من العين! وهو مثلُ قولِ الشاعر:

بان الصَّباحُ كأَنَّ غُرَّتَهُ *** وجهُ الخليفةِ حينَ يُمْتَدَحُ

والأصل تشبيه وجه الخليفة بالصُّبح وليس العكس.

موقع كلمة ﴿حَزَنًا﴾، ودلالته:

أحدها: أنَّهُ مفعولٌ من أجله، والعاملُ فيه ﴿تَفِيضُ﴾، فإنَّ (الفيض) مُسنَد للأعين، و(الحزنَ) صادرٌ من أصحاب الأعين، وإذا اختلف الفاعل وجب جرُّه بالحرف؛ لأنَّا نقول: إنَّ الحزنَ يُسندُ للأعين أيضًا مجازًا، يُقال: عين حزينةٌ وسخينةٌ، وعينٌ مسرورةٌ وقريرةٌ في ضدِّ ذلك. وفائدة ذلك التّشخيص وإبراز دور الأعين في التّعبير عن دواخل النّفوس، وما أصابها من الحزن، لما أحدثه ذلك الموقف من أثر كبير في دواخلهم، الثّاني: أنَّهُ في محلِّ نصبٍ على الحال، أي: تولَّوا حزينين، أو: تفيض أعينهم حزينةً، على ما تقدَّم

الجملة تعكس عظيم الحزن الّذي ألَمَّ بهؤلاء المحرومين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.

من المجاز. فكما أنّهم حزينون - وهذا واقع حالهم - فإنّ أعينهم قد جسّدت ذلك الحزن في الأعين وكأنّها هي الحزينة، وهذا على المجاز، الثّالث: أنه مصدر ناصبُه مقدّرٌ من لفظه، أي: يحزنون حزنًا"[1]. وهذا يعكس شدّة الحزن الّذي ألمّ بهم.

الغرض من التّعبير، بقوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾:

بيان أنّهم حزينون لأنّهم لا يجدون ما يُنفقون، للخروج مع الرّسول الأكرم

قوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ مجرورٌ بلام جرٍّ محذوفٍ؛ أي: حَزَنوا لأنّهم لا يجدون ما يُنفقون[2]، فهو تعليل لما سبق ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾؛ وفيه تأكيد على صدق نيَّاتهم في الخروج مع رسول الله ﷺ وفيه في الوقت ذاته تشنيعٌ على أدعياء العذر.

دلالة التّعبير بالمضارع:

فقدان معيّة الرّسول، لأمرٍ غير مُتوقّعٍ لديهم، ممّا يعظم عليهم

قوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾، المضارع هنا يُفيد دلالة التّجدّد والاستمرار؛ ودلالة بحثهم عن شيء يُعينهم على الخُروج وهم مستمرّون في ذلك فلا يجدون، فتعكس مدى حرصهم على إيجاد ما يُنفقونه من أجل الخروج مع رسول الله ﷺ، ثم إنّها تُفيد تجدّد الحسرة لديهم؛ إذ إنّهم سيفقدون معيّة الرّسول لمجرّد أنّهم لا يجدون ما يُنفقون، إذ لم يكن ذلك مُتخيّلًا لديهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتْيانُ والمجيءُ:

الإتيان يكون عادة بشيء، والمجيء يكون بلا شيء

الإتيان بمعنى أن تأتي ومعك شيءٌ، والمجيء هو أن تجيء دون شيء، وقد تناولنا الفَرْق بين اللفظتين مفصّلًا في تفسير الآية.

(لا أجد)، و(لا أملك):

الوَجدُ لا يدلُّ على التّملّك، وهو بخلاف المُلْك

قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾؛ وجد مطلوبه يجده، ووَجَدَ ضَالّته وِجْدَانًا، وأوْجَدَهُ اللّه مطلوبَه؛ أي: أظفَرَه به، وأَوْجَده: أغناه[3]، أمّا (لا أملِكُ)؛

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/174، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (وجد).

المُلكُ للّه، ومَلَكُوت اللّه: سلطانُه. والمَلْكُ: ما ملكت اليد من مالٍ وخَوَل[1]. ودلالة (لا أملك) هو عدم ملك المتكلّم الشّيءَ، ولكنّه قد يُوجد عنده أو من حوله، أي: عند غيره، أمّا قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾ فدلالتها عدم وجدان الشَّيء في المكان والزّمان الّذي قيلت عنده الكلمة.

التّوَلّي والإعراضُ:

التّوَلّي انصرافٌ مصحوب برجاء وأمل، والإعراض رفضٌ وعدم رضًا

التّولّي هو الرّجوع عن الشّيءِ، قد يكون مصحوبًا بالرّضا، وفيه دلالة على عامل نفسيّ، أو قضيّة كبرى تطمح النّفس إلى تحقيقها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: 150]؛ على خلاف الإعراض فهو الرّفض وعدم الرّضا، وترك المسألة، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، أو قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النّساء: 63].

الدَّمعُ، والبُكاءُ:

الدّمع عَرَضٌ من أعراض البكاء، والبكاء ذرف الدّموع، وقد يكون بإرادة أو بدونها

الدَّمع هو عَرَضٌ من أعراض البُكاء ونتيجة من نتائجه. والبكاء هو عارض من أعراض الحزن والألم وتأثّر النّفس؛ فالبُكاء فعل قد يصدر عن الفرد دون إرادته، والدّمع عَرَضٌ من أعراضه يدلّ عليه غالبًا.

(1) الخليل، العين: (ملك).

الجُزْءُ الحَادِي عَشَرَ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»